استخدم لغة الحياة
للتأثير على النفوس والوصول إلى القلوب

بقلم: أمين الخولى

إن «حياة بيرم» الحافلة، شاهد على الحاجة الماسة الدافعة إلى استعمال لغة الحياة فى مختلف الفنون، من مسرحية، وصحفية، وعملية.. إذ كان الرجل مع الطاقة الفصيحة، التى أثبتها أقوى الإثبات وأبرعه، يعمد إلى استعمال لغة الحياة، ويؤثرها ويبلغ بها من التأثير على الدنيا ذلك المبلغ الكبير، وتلك فيما يستبين ـ شهادة ـ للغة الحياة لا يُطعن فيها ولا تُجْحَد.

وأحسب أنه لا موضع للمماراة فى جدوى استعمال لغة الحياة، بعد هذه التجربة الطويلة، بل إن هذه التجربة لتشهد أنه لا حياة للغة الرسمية، إلا بقدر ما تستطع أن تكونه لغة الحياة.

«وحياة بيرم» تجربة فى هذا شاهدة، ينبغى أن تقدر دلالتها، على أن اللغة العامية، لا تقدر الكفاية للتعبير عن كرائم المعانى، وكبار الأهداف، وجلائل الأغراض، بل إنها باستطاعتها التأثير على النفوس، والوصول إلى القلوب، تستطيع ما لا تستطيع اللغة الأخرى من ذلك، وتبلغ فيه مبلغاً لا تبلغه الأخرى، وتنطلق إلى آفاق فسيحة، كريمة، تؤثر أن تعبر عنها بتلك اللغة الحيوية، فيسعفك تأثيرها على الإقناع بها.

وليس مما يصح كثيراً، القول بأن «لغة الحياة» هى دائماً وأولاً لغة الأغمار الجهال، الذين لا يعرفون من الحياة، إلا ما يقوم به بناؤهم الجسمى وكيانهم

الحيوانى، ولايد لهم بشيء من المعانى العالية، ولا تستطيع لغتهم التعبير عن أغراض سامية.

وليس المعرفة ولا الخبرة، بل ليست الحكمة نفسها موقوفة على القارئين الكاتبين، بل إن الذين يمارسون الحياة ممارسة عامة، والذين لم يقرأوا ويكتبوا، قد يتهيأ لهم من المعرفة والثقافة، ما لا يتهيأ شيء منه، للذين وقفت معرفتهم بالدنيا، عند فك الخط، وقراءة الورقة.

وحسبنا استطراداً فى الحديث عن طاقة العامية، فإنما كان القصد الأول إلى بيان ما لبيرم، من قدرة على الانتفاع بطاقة العامية، والحكمة الاجتماعية، والنقد السياسى والأدبى، وغير ذلك: مما ترك فيه آثاراً شاهدة بطاقة لغة الحياة، التى آثر استعمالها وأجاد.

ومما نحن فيه من وقوف عن تجارب الأدب الشعبى، الوقوف عن بلاغة لغة الحياة، فى آثار الرجل، ومدار تلك البلاغة وأساسها، وما يخفى من معرفة مواطن تلك البلاغة فيها، على من يحاولون استعمالها الفنى اليوم، فلا يتهيأ لهم ذلك القول البليغ بها، إلا لقلة محدودة فيهم.

وبلاغة العامية، لا تكتسب بالمدارسة والتلقى المتعلم، لأنها لا تجد فرصة من التعليم والتلقين فى مدرسة أو فى معهد، بل هى محرومة من ذلك تماماً. فلم يبق سبيل إلى معرفتها واكتسابها، إلا الممارسة المجربة المزاولة، يسعفها الذوق الموهوب، واللاحظة الحساسة، والوجدان الشفاف.

حتى يتهيأ من كل أولئك مجتمعة، ما يرجى من الشعور بوقع التعبير، وتمثله بالحواس كافة؛ فتحسه وتظفر منه بالإدراك الحسى، كما يقول النفسيون.

ويصل الأمر، بصاحب الموهبة الدوقية الممارِس، إلى أن يرى الكلمات، شاهدة، ويسمعها معبرة، ويذوقها ذات طعم، ولا يبعد عليه، أن يتبين

للكلمة، ملامح وقسمات محببة خفيفة الدم، أو ثقيلة الظل، كأبناء آدم الذين يراهم فى أوضاع من ذلك متفاوتة، ويسمعها كذلك نغماً رناناً صافياً، أو أجش كابياً، كأنغام الموسيقى فى التوقيع والتلحين، ويذوق الألفاظ طعماً حلواً أو مرّاً كالطعوم والأشربة، وهو يشمها كذلك عطراً وطيباً، أو خبثاً ونتناً.

وإذا كان الأمر فى كسب بلاغة العامية، ودقة الحس بها، على نحو مَّا، تهيأ لأديب الشعب «بيرم» فإنا لا نلفت الراغبين فى شىء من القول البليغ بهذه اللغة العامة، إلا إلى تلك الممارسة المجربة، يهتدون بها.

وفى فن بيرم الشعبى، وتجربته الحيوية، فى استعمال اللغة العامية، ما يفسر كل الذى نريد أن نقوله هنا، عن بلاغة العامية وطريق إدراكها وكيفية إحساسها وتذوقها؛ فقد كان أديب الشعب، من أكثر الناس توفيقاً، فى التذوق اللغوى.

وعن هذا التذوق النفَّاذ، كان يتخير عباراته، ويواتيه من التخير تدفق منطلق، حتى لا يحوجه الوزن إلى تغيير الكلمات وتاليف الجمل فى اللغة العامية، فتحمل كل ما لها من تأثير ووقع، وهى فى نظمه من زجل أو موال، أو أغنية، كأنها تجرى فى الحديث العادى المرسل.

وكذلك تقدم تجربة «بيرم» الفنية، المثل والشاهد ووسيلة الإيضاح، التى نلتمسها فى بيان بلاغة العامية.

■■■